♦♦♦

المحاضرة العاشرة (10): الاتجاه الوظيفي التوازني المحدث والإخفاق المدرسي.

♦♦♦

المبحث الثاني- الاتجاه الوظيفي التوازني المحدث والإخفاق المدرسي (مقاربة روبرت ميرتون حول النجاح والفشل بشكل عام).

سنتطرق إلى البناء الاجتماعي و اللامعيارية و السلوك غير الامتثالي و السلوك الامتثالي عند روبرت ميرتون، ثم إلى تصنيف أنماط الاستجابات لدى الأفراد(التلاميذ و الطلبة) بين النجاح و الفشل بشكل عام.

المطلب الأول- البناء الاجتماعي و اللامعيارية و السلوك غير الامتثالي، و السلوك الامتثالي:

نجد ميرتون يجعل نظريته حول النجاح و الفشل أكثر شمولا لتسع البناء الاجتماعي بشكل عام، و كيفية صياغته للأهداف و الوسائل التي يمكن للفرد أن يحقق أهدافه من خلالها. ولذلك يمكن وببساطة تنزيلها على النظام التعليمي و المدرسة و التحصيل الدراسي بقطبيه النجاح و الإخفاق الدراسي، وتتضح هذه الفكرة من خلال قضية القيم و الإخفاق الدراسي .

ففي دراسة ميرتون حول **البناء الاجتماعي و اللامعيارية** -هي ضعف وانحصار وغياب القيم الإيجابية وبروز وانتشار القيم السلبية- ، طبّق نظريته الوظيفية في تحليل المصادر الاجتماعية و الثقافية للسلوك المنحرف، وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة، أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعي ضغوطا محددة على أشخاص معينين في المجتمع لممارسة سلوك غير امتثالي، بدلا من ممارستهم لسلوك امتثالي.(عدلي أبو طاحون، 1990 :253 -254)

وقد بدأ ميرتون بالتسليم بأن البنية الاجتماعية والثقافية تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينة، وعلاوة على ذلك تحدد أساليب معينة مقبولة لتحقيق أهدافها، أي أن ميرتون قد ميز بين عنصرين رئيسيين فيما أسماه بالبناء الثقافي للمجتمع، الأهداف المحددة ثقافيا من جهة، والأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى. وفي مجتمع جيد التكامل نجد تكاملا وتناغما بين الأهداف والأساليب، فَكُلًا من الأهداف والأساليب تجد تقبلا من أفراد المجتمع ككل، كما أنها تكون ميسورة لهم. (عدلي أبو طاحون، 1990 : 55)

ويحدث اللاتكامل في المجتمع عندما يكون هناك تأكيد على أحد الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر. و هذا ما يحدث في المجتمع، فالتأكيد على أهداف معينة مثل النجاح الفردي و ارتقاء السلم الاجتماعي؛ دون تأكيد مماثل على الأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف، فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع في المجتمع. و قد نشأ عن ذلك حالة من اللامعيارية في المجتمع؛ ذلك أنه لا بد أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح و بين الفرص المشروعة للنجاح، بحيث يحصل الأفراد على الإشباع الضروري الذي يساعد على تحقيق النسق الاجتماعي لوظائفه، فإذا لم يتحقق ذلك؛ فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل و يحدث ما أسماه بالاختلال الوظيفي. (جان بيار دوران و روبيل فايل، 2012 : 189)

المطلب الثاني- تصنيف أنماط الاستجابات لدى الأفراد(التلاميذ و الطلبة) بين النجاح و الفشل:

قدم ميرتون **تصنيفا لأنماط الاستجابات لدى الأفراد أو تكيفهم لذلك التفاوت**، أو الانفصام بين الأهداف المرغوبة و المحددة ثقافيا (أي النجاح) ، وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف. و قرر أن هناك خمسة أنماط لتكيف الأفراد في المجتمع، أول هذه الأنماط وظيفي، أي يساعد على بقاء النسق الاجتماعي، والأربعة المتبقية ضارة وظيفيا، أو أنماط تكيف منحرفة (أي يهددون بقاء هذا النسق)، و هذه الأنماط الخمسة هي: (أحمد سمير نعيم، 1985 : 201- 204)

أولا- نمط الامتثال :

يحدث هذا النوع من التكيف حين يتقبل الأفراد الأهداف الثقافية ويمتثلون لها، و في نفس الوقت يتقبلون الأساليب التي يحددها النظام الاجتماعي بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف، مثال ذلك تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح، و الحصول على دخل مرتفع، و تقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق ذلك الهدف. فإذا كانت فرصة التعليم متاحة للكل أو غالبية أفراد المجتمع؛ فإن حالة من الثبات أو التكامل سوف تسود المجتمع، لأن غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها في نفس الوقت. أما إذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس؛ فإن أحد الأنماط التالية من التكيف الانحرافي يمكن أن تحدث.

ثانيا- نمط الإبداع أو الابتكار (غير المشروع):

يرى ميرتون أن هذا النمط من التكيف هو أهم أنماط التكيف الانحرافي في المجتمع، و يعني به أن نسبة كبيرة من الناس في المجتمع تتقبل أهداف النجاح التي تؤكد عليها ثقافة المجتمع، و لكنها تجد فرص تحقيق هذه الأهداف موصده أمامها، لأن توزيع هذه الفرص غير متكافئ، و في هذه الحالة يرفضون الأساليب المشروعة لتحقيق النجاح (مثل التعليم) ، و يبتدعون أساليب غير مشروعة لتحقيق هذا الهدف، و يسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة العاملة.

و في محاولة لشرح و تفسير لماذا ينبغي حدوث الابتكار؛ يطرح ميرتون فروضا ضمنية وهي:

1- يذهب ميرتون إلى أن خبرات التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية للفرد لا سيما في الأسرة هامة، بصفة خاصة في تحديد رغبتهم في استخدام وسائل مشروعة.

2- في المجتمعات التي تؤكد فيها القيم الثقافية على الإنجازات الفردية على عكس إنجازات الجماعة أو الجمعية؛ يتعرض الأفراد لضغوط كبيرة لتحقيق أهداف النجاح، حتى لو انطوى ذلك على استخدام وسائل غير مشروعة ثقافيا، و عدم اللجوء إلى ذلك يعرض الشخص للوصف بالفشل.

ثالثا :يوجد استدلال ضمني و هو أن الوسائل غير المشروعة، و التي سبق أن استعملها الناس في الماضي حسب الضغوط الشاذة؛ ستكون متاحة بشكل أسهل للأفراد المحتاجين للبحث عن النجاح، والذين لديهم رغبة في مخالفة الوسائل المشروعة ثقافيا.

ثالثا- نمط الطقوسية :

يتمثل هذا النمط من التكيف في التخلي عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردي، و تحقيق الثروة و صعود السلم الاجتماعي، أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل إلى درجة منخفضة يمكن معها إشباع هذا الطموح، و في نفس الوقت يظل الفرد ملزما بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئا يذكر، و يسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة الوسطى والدنيا، ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد في هذه الطبقة، و إلى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة. (أحمد سمير نعيم، 1985 : 205)

رابعا- نمط الإنسحابية :

وهو من أقل الأنماط شيوعا في المجتمع، و الفرد الذي يلجأ إلى هذا النمط الإنسحابي يعيش في المجتمع، و لكنه لا يكون جزءا منه، أي أنه لا يشارك في الاتفاق الجماعي على القيم المجتمعية. و الإنسحابي يتخلى عن كلا من الأهداف والأساليب التي يحددها النسق، ويرى ميرتون أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية (أي غير المشروعة) لتحقيق الأهداف، وفي نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها، ولا يكون أمامه من مفر سوى أن ينسحب من المجتمع. بالنسبة للأفراد الذين يجدون أنفسهم في هذا الموقف يعتبر الانسحاب من الالتزام بأهداف النجاح الثقافية وكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة أكثر التوافقات احتمالا.

خامسا- نمط التمرد :

يتسم هذا النمط من التكيف بإدانة (و ليس مجرد رفض كما هو الحال في النمط السابق) كلا من الأهداف الثقافية للنجاح و الالتزام بالأساليب النمطية لتحقيقها، أي إذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهداف و الأساليب رفضا سلبيا و الهروب من المجتمع؛ فإن هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابي، و السعي إلى استبدال البناء الاجتماعي القائم ببناء آخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح و فرصا أخرى لتحقيقه.

و في نظر **ميرتون** فإن سلوك التمرد أكثر احتمالا في حدوثه؛ عندما يتزايد و يتصاعد بشكل خطير الإحباط، ومشاعر الحرمان المدركة من الفشل في تحقيق الأهداف من خلال القنوات الشرعية، وحينما توجد جماعات تطرح أيديولوجية قادرة على تعبئة مشاعر الحرمان. و تتضمن مناقشته للتمرد أن مشاعر الحرمان لا تحتاج إلى أن تكون مطلقة، وإنما أن تكون نسبية في أن أهداف النجاح الثقافية تثير توقعات ورغبات في النجاح إلى درجة تتصاعد معها الإحباطات ومشاعر الحرمان. (أحمد سمير نعيم، 1985 : 206)

باختصار يرى أنصار هدا الاتجاه أن التربية أداة مهمة لتحقيق استقرار المجتمع، فهي التي تقوم بنقل قيم ومعايير السلوك الاجتماعي السائد في المجتمع إلى الأجيال القادمة. كما أنها تقوم على خلق مجتمع طبقي مفتوح ومرن، تحدد فيه المكانة الاجتماعية للأفراد تبعا لما يملكونه من مواهب وكفاءات؛ ومن ثمة تتاح لهم فرص متكافئة في عملية الحراك الاجتماعي، ويتم ذلك من خلال ترسيخ قيم النظام الرأسمالي كقيم الإنجاز والاستحقاق وتكافؤ الفرص، والتفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين الأفراد راجع أساسا إلى التفاوت في مستوى التعليم الحاصل عليه الطلبة من النجاح أو الإخفاق.

ظلت هذه الأفكار سائدة على الفكر الاجتماعي خلال فترة الخمسينيات والستينيات، وظهرت مفاهيم مثل "الاستثمار البشري "و"تكافؤ الفرص." واندمج هذا الاتجاه مع نمط الحياة السياسية والاقتصادية لتلك الفترة . فكانت للأفراد ثقة كبيرة في دور المعرفة والتكوين في المدرسة، وفي ضمان حراك اجتماعي للأفراد، إلاّ أن الآمال المعلقة على التربية ما لبثت أن خابت، فلم تتحقق العدالة الاجتماعية بتوسيع فرص التعليم، كما أن الشك بدأ يساور الباحثين في الفكرة التي مفادها أن توسع نظم التعليم يؤدي إلى ديمقراطية التعليم . (عبد السميع سيد أحمد، 1993: 40)

وبدأ التساؤل حول بعض القضايا مثل: من ينتقي القيم الأساسية التي تنقلها المدرسة؟ هل هذه القيم محل إجماع من طرف قوى المجتمع؟ من يقرر برامج التكوين لمختلف الفروع؟ ثم توالت الانتقادات للمسلمات التي تقوم عليها النظرية الوظيفية، من حيث أنها تحاول الإبقاء على العلاقات القائمة بين مكونات النظم الاجتماعية في حالة من الثبات، ولا تحاول إحداث تغييرات جذرية في المجتمع.

الدكتور/ صيد حاتم